الفصل الرابع
السلالة الطاهرة

السيدة سكينة (بنت الحسين)

يقف التاريخ وقفة إجلال وإكبار أمام آل بيت رسول الله ﷺ، لمنزلتهم الكريمة، وقربهم لرسول الله ﷺ.

وسيدتنا مدار حديثنا هي بنت الإمام الحسين سيد الشهداء، وبطل كربلاء، وكان المسلمون يجدون فيه نفحات من نبيهم الكريم، رآه عبد اللَّه بن عمر ذات يوم فهتف قائلاً: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء.

مولدها

ولدت سيدتنا سكينة عام ٤٧ هـ على الأرجح، والأعوام التي سبقت مولدها شهدت فيها المدينة أحداثاً تمخّضت عن مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكذا عثمان رضي الله عنه، ثم جدها لأبيها الإمام عليّ كرَّم الله وجهه.

وعندما ولدت في هذا العام سمَّاها أبوها آمنة، تيمناً باسم جدتها الكبري أم النبي ﷺ، ولأن فيها هدوءاً وسكوناً، وكانت مبعث أنس لآلها الكرام، يسكنون إلى مرحها وظرفها، خاصة في الظروف العصيبة التي كانت تمر بهم، ولقبتها أمها «سَكِينة» بفتح السين وكسر الكاف.

أمها

الرباب بنت امرئ القيس الذي أسلم في عهد عمر بن الخطاب، وعقد له اللواء على قضاعة بالشام، وقد درجت في بيت النبوة خالية البال من الهموم التي كانت تشغل فكر آلها في ذلك الحين، لأنه لم يكن قد مضى على مَصْرَع جدها أكثر من سبع سنوات، ثم إن عمها الإمام الحَسَن الذي بُويِعَ بالخلافة وتنازل عنها حقناً لدماء المسلمين وبرغم ذلك فقد امتدت إليه يد الخيانة والغدر، فدسَّت له السُّمَّ، فلقي مصرعه بيد زوجته.

وإذا كانت ظلال الأَسَى والكآبة تسيطر على البيت الهاشمي فإن صغر سنها لم يكن يعطيها عمق الإحساس الذي أحس به آل البيت الكرام، لذلك كانت تبدو لطيفة الطلعة، خلية البال في طفولة بريئة، تحاول إظهار الضحك والسرور لتسرِّي عَمَّنْ حولها. ولقد سألوها مرة: «إنكِ لتَمْزَحِينَ كثيراً وأختك فاطمة لا تمزح»، فأجابت: «لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة، وسميتموني باسم جدتنا الأخرى». ولذلك كان أبوها يلتمس لديها الأنس لنفسه، لأنها كانت مبعث سرور قلبه لظرفها ومرحها. ولما عُوتب لكثرة جُلوسة مع السيدة سكينة وأمها الرباب أجاب مَنْ لامُوه بقوله:

لعمـــري إنَّنـــي لأحـــبُّ داراً تضيفهـــا سكينـــة والـــربـــابُ
أحبهـــا وأبـــذل بعـــد مـــالـــى وليـــس لـــلائمـــي فيهـــا عتـــابُ
ولَسْتُ لهـم وإنْ عَتَبُـوا مُطِيعـاً حيـــاتـــي أو يغيبنـــي التـــرابُ

ويستفاد من ذلك شدة تعلُّق الإمام الحسين بابنته سكينة وزوجته الرباب التي أخلصت له الإخلاص الكامل، ووقفت بجواره تشد أزره، وتساعده على أمره، وتعينه على مسائله الخاصة والعامة. كما أن سكينة كانت تُتابع أباها بخواطرها وقلبها إذا غاب خارج المنزل، فإذا رجع إليه كانت أسرع مَنْ في البيت إلى لقائه، وهي تبتسم له ابتسامة الأنس والرضا، وتحاول أن تخفف عن أبيها ما كان يُثقل كاهله من هموم أمر الخلافة التي آلت إلى شخص لا يرعوي ولا ينزجر.

الأحداث في حياتها

كانت السيدة سكينة كلما تقدمت بها الأيام تشعر بما يحيط بأسرتها وما يجري حولها من أحداث، وبدأت تشعر بهذا الصراع المحتدم بين حق أبيها وباطل خصومه، وإذا كان ما قدمناه من أنها كانت خالية البال عريضة الابتسامة لا هَمَّ لها إلاَّ أن تملأ البيت بدعابتها المرحة، وتسرِّي عن أبيها، فإننا نلخِّص هنا أنها كثيراً ما هجرها النوم، وتلاعبت أمام عينها أشباحُ الهَمِّ، وكانت في الليل تري أباها وهو يتحرك فكان يزداد أَرَقُها وحزنها، وكم مرت عليها الليالي دون أن يغمض لها

جفن، حتى إذا أشرقت الشمس كانت هي مشرقة معها الابتسامة المعهودة، ومرحها المألوف، حتى لا يشعر أبوها بما يعتلج في نفسها. ولقد كان شقيقها عبد الله الذي كان الحسين يُكَنِّي به لا يُظهر مثل ما تظهر هي، لأنه كان يحضر مع أبيه في المجالس، ويري ما يجري في المجتمعات الخارجية.

في دوامة الأحداث

قبل موت «معاوية» أخذ العهد لولده «يزيد» الذي أظهر الاستهتار بالقيم الدينية، وعدم الالتزام بالمنهج الديني، مِمَّا دعا أهل الكوفة أن يُكاتبوا الإمام الحسين ويطلبوا منه الحضور إلى ديارهم ليكونوا من ورائه صفًّا، ويعمل على تصحيح الأوضاع والأخذ على يد العابثين. وأجاب الحسين دعوتهم، وذهب إلى أهل العراق دون أن يعرف ما هو مُخَبَّأ له في علم الله، وكان معه آل البيت الأطهار، ومن بينهم سيدتنا سكينة، ودَنا الرَّكْبُ من مشارف الكوفة، ونزل الجميع، وغشيهم نوع من الحزن، لأنه في تلك الديار قُتِلَ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب، ومضت معارك طاحنة. وكانت سكينة تبكي، لأنها رأت أن جند أبيها يتساقطون واحداً بعد الآخر، فبكت وكثر بكاؤها، فَرَنا إليها أبوها الحبيب ثم قال لها: سيطول بُعْدِي عنك يا سكينة فادَّخِرِي البكاء لغد، وإنَّ غداً لناظره قريب. ثُمَّ أوصي أمها «الرباب» أن ترعاها وأن تعتني بها.

ومضت لحظات من السكون دارت الأرض من تحتها وكبس عليها الهم من كل ناحية، وابتعد عنها النوم، وقلَّت ابتسامتها، ثم دارت المعارك بعد ذلك، ومضت الأيام، وقُتِلَ الإمام الحسين والكثير من أصحابه وأولاده وآل بيته، وسِيقَتِ العقائل الهاشميات إلى قصر الإمارة في موكبٍ تَعِسٍ لم تشهد الدنيا له مثيلاً من قبل، وكان من بينهم «سكينة» و«الرباب» ولقد سمعت «سكينة» أمها وهي تبكي وتقول:

واحُسَيْناً فلا نسيتُ حسيناً ... أَقْصَتْهُ أَسِنَّةُ الأعداءِ

غادروه بكربلاء صريعاً ... لا سَقَي الله جانبي كربلاءِ

وطافت الذكريات أمام «سكينة»، ثم استقر بها المقام مع أمها في المدينة بعد مشاهد مثيرة وأحداث عاصفة، فُتِّتَ منها الكبد، وهيجت منها مشاعر الحزن والأَسَى.

ومضت الأيام لا تكفكف لها دمعات، كما أنها لم تُظْهر أيَّ نوع من الرضا. وبعد أن انتهت مدة الحداد خُطبت أمها الرباب، ولكنها لم تقبل الزواج من أحد بعد الإمام الحسين، ولقيت ربها بعد عام من تلك الأحداث، وأقامت سكينة عند أخيها «زين العابدين علي بن الحسين».

سكينة الزوجة

تزوجت سيدتنا من «مصعب بن الزبير» حوالي سنة ٦٦ هـ، وقد استقبلت دنياها الجديدة بوجه يتألق بشراً، وبدأت حياة جديدة، حاولت أن تنسي كل شيء مَرَّ أمامها، خاصة أن لها ضرة اسمها «عائشة بنت طلحة» كانت مشهورة بالجمال والذكاء، إلا أن السيدة «سكينة» كانت أذكي من الجميع، ومشهور عنها العلم، والأدب، والفقه... ومن الأخبار المروية أن «سكينة» شهدت يوماً مأتماً فيه بنت لعثمان بن عفان، فقالت العثمانية: أنا بنت شهيد. فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها بمسمع من بنت سيد الشهداء، على حين أمسكت «سكينة» صامتة لا تعلِّق إلى أن أَذَّنَ المؤذن من مسجد الرسول ﷺ، فلما بلغ قوله: أشهد أنَّ محمداً رسول الله، التفتت سكينة إلى بنت عثمان وسألتها: أهذا أبي أم أبوك؟ فأجابت العثمانية في تواضع: لا أفخر عليكم أبداً.

كما أنها كانت شجاعة، ويدلّنا على شجاعتها ما مرَّ أمام عينيها من أحداث أبيها في كربلاء، وكانت آية في ضبط النفس والتحكُّم في عواطفها، والسيطرة على وجدانها، وكانت في المجتمع الذي تعيش فيه ملء العيون جلالاً ووقاراً.

وفاتها

عاشت سيدتنا الكريمة حياتها وهي تمثل مكاناً مرموقاً في المجتمع، وتنقَّلت

من مكان إلى مكان، وهي في كل ذلك على صلة بربها، عابدة متبتِّلة، صوّامة قوّامة، يتحدث الناس عن جمالها الفتّان. وتستغرق في العبادة لحظات طويلة، وكانت لها مناجاة مع ربها إلى أن وافتها المنية في عام ١١٧ هـ، فرضي الله عنها وأرضاها وألحقنا بها في الصالحين.

السيدة فاطمة النبوية

بنت الإمام الحسين بن عليّ، زوج الطاهرة البتول فاطمة الزهراء... سلالة طيبة أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً.

اختار الله نبيه منهم، وكان جبريل عليه السلام ينزل ويصعد من عندهم، وهم الأطهار الأبرار، في بيوتهم تنزّلت آيات السماء، ومن أفعالهم أخذت خصال الخير، افترض الله على المؤمنين مَوَدّتهم وجعلها من علامة الإيمان ودعائم الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. وحَضَّت السنّة الشريفة في الأحاديث الصحيحة على حُبِّهم ومودّتهم، فقد قال ﷺ: «**أَحِبُّوا الله لما يغذوكم به من نِعَمِه، وأحبُّوني لِحُبِّ الله، وأحبوا أهل بيتي لِحُبِّي**». وقال ﷺ: «**أُذَكِّرُكُم الله في أهل بيتي، وإذا كان لكل شيء أساس فأساس الإسلام حُبُّ أصحابِ رسول الله ﷺ، وحب أهل بيته**».

وحول هذا المعنى قال الشاعر:

أحبُّ النبيَّ المصطفى وابنَ عمه ... عليًّا وسِبْطَيْهِ وفاطمة الزَّهْرا
هُمْ أهلُ بيتٍ أذهب الرجس عنهم ... وأطلعهم أُفق الهدي أنجما زُهْرا
مُوالاتُهُمْ فَرْضٌ على كل مسلم ... وحُبُّهُمُ أَسْنَى الذخائرِ الأُخْرَى
وما أنا للصِحْبِ الكرام بمبغضٍ ... فإني أرَى البغضاءَ في حقهم كُفْرا

ويقول الإمام الشافعي:

يا أهلَ بيتِ رسول الله حُبُّكُمُ ... فرضٌ من الله في القرآنِ أَنْزَلَهُ

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

يكفيكمو من عظيم الفَخْرِ أنكمُ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليكم لا صَلاةَ لَهُ

ويقول الفرزدق:

من معشر حبهم دين وبُغْضُهُمُو كفرٌ وقربهم مَنْجًى ومعتصمُ
مقدمٌ بعدَ ذِكْرِ الله ذكرهمو في كل بَدْءٍ ومختومٍ له الكَلِمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كانوا أئمتهم أو قيل: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأرضِ؟ قيل: هُمُ

وسيدتنا «فاطمة» هي من تلك السلالة الطاهرة، والدوحة النبوية الكريمة، لأن أباها هو الإمام الحسين ـ سيد شباب أهل الجنة ـ وريحانة المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه، والذي كان يحمله على عاتقه ويُقَبِّلُه. وقد رَوَى أبو هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحَسَنُ والحُسَيْنُ على عاتقه، يلثم هذا مرة وهذا مرة، حتى انتهي إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله، إنك تحبهما؟ فقال: **«مَنْ أَحَبَّهُما فقد أَحَبَّنِي، ومَنْ أَبْغَضَهُما فقد أَبْغَضَنِي»**.

أمها

أما والدتها فهي أُمُّ إسحاق بنت طلحة بن عبد اللَّه... نقية طاهرة، ذكية صالحة، كانت زوجة للإمام الحَسَن، ولما شعر بدنوّ أجله دعا الإمام الحسين فقال: يا أخي، إني أرضي هذه المرأة لكَ فلا تخرجنَّ من بيوتكم، فإذا انقضت العِدَّة فتزوَّجها. فلما توفي الإمام الحَسَن وانقضت عِدَّتُها تزوجها الإمام الحسين، فولدت له «فاطمة» الصغرى، وقيل الصغري للفرق بينها وبين فاطمة الزهراء جدتها الكبرى، رضي الله عنهم جميعاً.

نشأتها

نشأت رضوان الله عليها في بيت تُتْلَي فيه آياتُ الله، ويتحدث الجميع عن القيم الأخلاقية والفضائل التي يجب أن يتحلَّي بها كل إنسان ليشعر بسعادة القلب وهدوء النفس وراحة البال، وقد اقتبسوا ذلك من قول جدِّهم الإمام عليٍّ رضي الله عنه:

ولَسْتُ أَرَى السَّعادَةَ جَمْعَ مالٍ ولكـــنَّ التَّقِـــيَّ هـــو السَّعِيـــدُ

فنشأت تقية متديِّنة، عفيفة مهذبة، عابدة عالمة، أديبة فصيحة. لها مميزات خاصة من الحُسْن والجمال، والاستغراق في العبادة، وظلت طوال حياتها من الصالحات القانتات، تراقب ربها في غدوِّها ورواحها ونشأت على ذلك من الصِّغَر، ومَنْ شَبَّ على شيء شابَ عليه، فكانت تناجي ربها وتتضرع إليه، وتقدم بين يدي الله حب الناس جميعاً، وتقديم المساعدة لكل إنسان. ولما كانت هي أكبر من السيدة «سكينة» فقد عُرفت بالسكون والهدوء، والاستغراق في العبادة، بخلاف السيدة «سكينة» التي عُرفت بالمرح، ولما سئلت السيدة «سكينة» عن ذلك وقيل لها: إنك لتمزحين كثيراً وأختك «فاطمة» لا تمزح، أجابت من فورها: لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة وسميتموني باسم جدتنا الأخرى.

والقصد من ذلك أن «فاطمة» سُمِّيَتْ باسم فاطمة الزهراء. وتقدمت السن بسيدتنا فاطمة، وبلغت مبلغ الفتيات الكواعب، فخفقت قلوب الشباب الهاشمي والقرشي نحوها، وتمني الجميع أن يكون له بابن بنت رسول الله ﷺ صلة نسب ومصاهرة.

كل شخص كان يتمني أن يسعده زمانه وأن تكون تلك الدُّرَّة الغالية الفريدة في حسنها وأدبها من نصيبه... وقد تهيَّب الجميع أن يُفاتح الحسين في ذلك، وكان شابًّا من تلك الدوحة المباركة تقدم من الإمام في حياء وخجل أن يزوِّجه بنتاً من بناته.

زواجها

والذي تقدم للإمام الحسين وطلب منه هذا الطلب هو الحَسَن المثنى بن الحَسَن بن عليٍّ كَرَّم الله وجهه، فهو قد تقدم إلى عمِّه وطلب منه أن ينال هذا الشرف، وأن ينال ما تصبو إليه نفسه، وقد رحَّب العم بابن أخيه وقال له مجيباً على طلبه: اخترتُ لك ابنتي فاطمة، فهي اكثر ابنتيّ شبهاً بأمي «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، وإنها لذات دين وجمال... وقد تزوجها الحَسَن المثني فولدت له

عبد اللّه، وعاشت معه عيشة طيبة حتى مات عنها، فتزوجت بعده عبد اللّه بن عمر بن عثمان بن عفان.

في مهب الريح

إن الله جلَّت قُدرته وضع آل البيت موضع الاختبار والامتحان، فتوالت عليهم مِحَنٌ ومحن، ليكونوا قدوة للناس في الصبر والرضا بقضاء الله، وإذا كان الرجل يُبْتَلَى على قَدْرِ دينه، فإن البلاء الذي نزل بآل البيت وحَلَّ بساحتهم ثم صبرهم عليه وعدم الجزع وعدم السخط جعلهم أسوة وقدوة للأمة الإسلامية، وصدق رسولُ الله ﷺ إذ قال: «**يُبْتَلَى الرجلُ على قَدْرِ دينه... وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**».

وفي سياق حديثنا لا بد أن نتعرض لذكر كربلاء، يوم قُتِلَ الإمام الحسين وهو يدافع عن الحق، ويذود عن الشرف، ويناضل عن الكرامة، وسقط شهيداً كريماً، ثم سِيقَتْ عقائل بني هاشم في السَّبْي والأَسْرِ، وإنه ليوم رهيب فظيع لا ينساه مَنْ شَهِدَهُ، وخاصة آل البيت النبوي الكريم... فالإمام الحسين دفع حياته ثمناً للذَّوْدِ عن الحق وإعلاء كلمة الإسلام، وبعد ذلك حُمِلَ رأسه الطاهر مع رؤوس الشهداء الأبرار الذين سقطوا معه على أَسِنَّةِ الرماح إلى الطاغية «يزيد بن معاوية».

كانت سيدتنا «فاطمة» قد سلَّمها أبوها كتاباً وأمرها أن تُسلِّمه إلى أخيها «عليِّ بن الحسين»، وهي أمينة على أسرار الأب العظيم الذي لم يتراجع إلى الوراء والأَسِنَّة مُشْرَعَة من حوله، ولم يُظهر أي نوع من السخط، وإنما أقدمَ على الموت كما يُقبل الظمآن على الماء شوقاً إلى الجنة ولقاء الأحبة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1].

وقد كانت فاطمة بنت العشرين عاماً من بين آل البيت النبوي الكريم، وقد

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٦٩ ـ ١٧٠.

وقف الجميع أمام «يزيد» وعلي وجوههم النور، وعلي ألسنتهم كلمة الحق تدوِّي، فلا خوف من أحد مهما كان، وإنما الخوف من الله الواحد الدَّيَّان. وقد كان يجلس رجل في مجلس «يزيد» ونظر إلى فاطمة نظرة كريهة تراجعت بسببها إلى صدر عمتها «زينب»، وإذا بالرجل يقول في صوت أجشّ: يا يزيد، هَبْ لي تلك الجارية ـ أراد أن يتخذها جارية عنده ـ ولكن سيدتنا «زينب» تصيح في صوت مِلْؤُهُ الشجاعة وتقول: «كَذَبْتَ ولئمتَ، فليس ذلك له ولا لك ولا من حقه».

وثار «يزيد» وكبر في عينيه أن تهاجمه السيدة الطاهرة «زينب» على هذه الصورة، وردَّ عليها بأنه يستطيع أن يفعل، وتجيبه بقولها: «إنكَ لأضعفُ أن تفعل ذلك إلاَّ إذا خرجت من مِلَّة الإسلام وتبرَّأت من دين الله». وسكت «يزيد» على مضض، لأنه شعر بضعفه أمام قوة الحق الذي يخرج من فم «زينب»... ومضت أيام وأحداث كربلاء أمام عيني «فاطمة» فبكت وبكت على مصرع الأب العظيم، وعلي مصرع الأحبة من حوله.

ولم يلتئم جرحها بعد ذلك قَطّ إلى أن لقيت ربها.

نهاية المطاف

كان الجرح في قلب فاطمة عميقاً، ولم تستطع الأيام أن تمحو آثاره، وكيف لا، وقد شهدت ورأت «وليسَ راءٍ كَمَنْ سَمِعَ»... وقنعت سيدتنا «فاطمة» من حياتها بما أفاء الله عليها، ولما توفي زوجها انصرفت عن الدنيا وأقبلت على التعبُّد والاعتكاف، وعرف الناس لها مكانتها، فأقبلوا عليها، وأحَبُّوا مجلسَها، واستمعوا إليها وهي تروي الحديث عن جدتها الزهراء، وقد كانت خطيبة بليغة، وشاعرة فصيحة.

وإنها لقدوة حسنة للمرأة المسلمة بسيرتها الحميدة المعروفة بالعفَّة والفضيلة، والصبر والتجلُّد، ومساعدة الناس، وحب الخير للجميع، وعاشت على هذا حتى لحقت بربها عام ١١٧ هـ ـ وهي السنة التي توفيت فيها السيدة سكينة ـ رضي الله عن الجميع وأرضاهم.

السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور

الذُّرِّيَّة الطيبة الصالحة يُكتب لها الخلود، ويُتَحَدَّثُ عنها بالإكبار والإعزاز، ويحفظ التاريخ آثارها، مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1].

والسيدة «نفسية» شريفة طاهرة، وزهرة يانعة، كريمة العنصر والمنبت... هي من سلالة أَذْهَبَ الله عنهم الرجس وطَهَّرَهُم تطهيراً.

من بيت النبوة، من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها... إنها النقية العفيفة، الزاهدة الساجدة، العابدة المتبتِّلة، قارئة القرآن ومفسِّرته، العالمة الأديبة، أُمّ العواجز والمساكين.

مولدها

شاء لها القَدَر الميمون أن تري الدنيا في ذكري ميلاد النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ، حيث إنها ولدت في الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٤٥ هـ، وكان مولدها بمكة المكرمة، فجمعت بين أفضل البقاع وأفضل الأيام، لأن أفضل البقاع مكة بلا منازع، وأفضل الأيام يوم ميلاد النبي، وتأمل معي قول أمير الشعراء شوقي:

يَوْمٌ يَتِيهُ عَلَى الزمانِ صَباحُهُ ومساؤه بِمُحَمَّدٍ وَضَّاءُ

ولمَّا عَلِمَ أبوها بمولدها سُرَّ سروراً عظيماً، ونظر إليها فإذا هي تشبه أخته «نفيسة بنت زيد» رضي الله عنهم جميعاً، وعلى الفور سمَّاها «نفيسة» لتُذكِّره بأخته الطيبة الصالحة، النقية الكريمة، صاحبة اليد الطولي في كَفْل الأيتام، ورعاية العميان، ولأنها دفعت زوجها لفعل الكثير من الخيرات مِمَّا يُذكر لها بالفضل.

---

(١) سورة فصلت، الآيات ٣٠ ـ ٣٢.

وتمنى أبوها أن تكون ابنته على جانب من الصلاح مثل ما لعمتها، ولذلك سمَّاها «نفيسة».

أبوها

هو الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم وأرضاهم... فهي من تلك الدوحة التي طابت فرعاً وزكَتْ أصلاً.

لقد كان الحَسَن إماماً في الدين، وعالماً كبيراً من خيرة التابعين، ثم إنه كان مُجابَ الدعوة لصلاحِهِ وتحرِّيه الحلال في المأكل والمشرب.

كان متواضعاً جدًّا، فقد حُكي أنه دخل عليه أحد الشعراء فأنشد يمدحه:

«الله فرد وابن زيد فرد»

فأسكته وقال: لا تكمل يا رجل، وغضب وقال له:

«الله فرد وابن زيد عَبْدٌ»

ثم نزل من على سريره وألصق خَدَّهُ بالأرض وهو يسبِّح الله ويبرأ مما قال هذا الشاعر... وهو فعل ذلك أُسْوَة بالنبي الكريم الذي كان إذا مدحه أَحَدٌ من الصحابة أو عَظَّمَهُ قال: «**لا تعظِّموني ولا تطروني كما أَطْرَتْ النصاري عيسي ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله**». وفي رواية أخرى: «**إنما أنا ابن امرأة كان تأكل القَدِيدَ بمكة**».

كان والياً على المدينة من قِبَلِ الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. وفي خلافة المهدي وليها كذلك للمرة الثانية، ولقد مات رضي الله عنه وهو في طريقه إلى الحج، فختم أيامه بأحسن الأعمال وأَجَلِّها.

أمها

أمها أُمُّ وَلد تَسَرَّي بها أبوها، فكانت تلك البضعة الطاهرة، ولا يغيِّرها ذلك ولا ينتقص من قدرها، لأن التَّسَرِّي مِمَّا أباحه الله وجعله حلالاً إذا استكمل

شروطه، ومعظم العلماء الأفاضل كانت أمهاتم أم ولد، ولم ينقص ذلك من قَدْرِهِم شيئاً.

نشأتها

نشأت رضي الله عنها نشأة طيبة، فإن اليُمْنَ عُقِدَ بناصيتها، وامتزج الخير بأنفاسها، فهي وُلدت بمكة، ومكثت بها خمس سنين، ثم سافرت إلى المدينة المنورة ـ علي ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ومن الصِّغَر لُقِّنَتْ مبادئ وأساس الإسلام، وبدأ أبوها يحفِّظها القرآن الكريم، لأنه أساس الفلاح، ومعراج اليقين، ثم هي كانت تذهب إلى المسجد النبوي تسمع من شيوخه، وتتلقن الفقه والحديث من علمائه، وسمعت من الإمام مالك مُوَطَّأه. وقد شُغفت بحديث جدِّها، فحفظت الكثير منه، وصارت بذلك مضرب المثل في العلم والأدب، ولُقِّبت «نفيسة العلم»... والإمام الشافعي مع عُلُوِّ قَدْرِهِ ومنزلته العلمية سَمِعَ عليها الحديث، وأخذ منها الكثير مما استفاد به في حياته العلمية.

قالت زينب بنت يحيي المتوَّج: كانت عمتي نفيسة تحفظ القرآن وتفسِّره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي وتقول: إلٰهي وسيدي يَسِّرْ لي زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام. لأنها كانت تعلم أنه أبو الأنبياء، أي إنه أبو جدها الأعظم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه. ولما تحققت تلك الأمنية تقول هي:

ما إنْ بلغتُ المقامَ الكريم ووقفتُ بين يدي جدي إبراهيم خليل الله حتى أجهشتُ بالبكاء ـ بكاء سرور ـ لتحقيق أمنيتي في زيارة الخليل، وجلست أقرأ القرآن.

وتقول نفس الرواية: خدمتُ عمتي السيدة نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليلٍ ولا أفطرت بنهار، إلا العيدين وأيام التشريق، وكنت أقول لها: ألا ترفقين بنفسك؟ فتردّ وتقول: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعها إلا الفائزون.

ويؤخذ من هذا أنها نشأت على التُّقَى والوَرَع، وكانت من الرائدات على طريق الخير، مالت من الصِّغَر إلى الجدِّ والاستقامة، والبُعْد عن زخرف الحياة

الدنيا وزينتها حتى لا تنجرف في تيار اللهو والفراغ. كانت الآخرة والموت نُصْب عينيها... وكانت عزيزة النفس، تربأ بنفسها عن مواطن الذل والابتذال، وتصون شخصيتها عن الامتهان والهوان، وهي مع ذلك لا يذهب بنفسها زهو أو كبرياء، بل هي متواضعة في غير ذل... كانت كريمة الأخلاق، شريفة الطبع، كثيرة الخير، تواسي البائسين، وتسعف الملهوفين، وتفرج كرب المكروبين... لا تردُّ سائلاً، ولا تمنع مستجدياً... وهب لها أحد الأمراء مائة ألف درهم وقال: خذي هذا المال شكراً لله لتوبتي، فأخذَتْهُ وصَرَّتْهُ صُرَراً بين يديها، وفرَّقت الصُّرَرَ عن آخرها، وكان عندها بعض النسوة، فقالت لها واحدة: يا سيدتي، لو تركتِ لنا شيئاً من هذه الدراهم نشتري به شيئاً نفطر عليه! فقالت لها: خذي غَزْلاً غزلتُه بيدي فبيعيه واشتري به طعاماً. فذهبت المرأة وباعت الغَزْلَ واشترت الطعام بثمن الغَزْل ولم تقبل أن تَدَّخِرَ من المال المُهْدَي إليها أي شيء، لِعِفَّتِها وقناعتها، فهي كانت تأكل من عَمَلِ يدها، وهي من قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصَة.

زواجها

إن النشأة الكريمة للبنت تجعلها محل إعجاب من الجميع، لذلك ما إنْ بلغت سيدتنا سنَّ الزواج حتى تمنَّي الجميع أن تكون من نصيبه تلك الكريمة، ومن هنا رغب في خطبتها شباب من خيرة الناس، وخاصة من بني الحُسَين والحَسَن رضي الله عنهم.

وقد كان هناك حديث يتردد عن تقواها وبرِّها، ودينها وخُلقها، ويزيد على ذلك إقبالها على العلم والمعرفة، علاوة على ما حباها الله به من حُسْن فائق وجمال رائع، كل ذلك جعل الخُطَّاب يكثرون، ويتمني كل شخص أن تكون في بيته أُمًّا لأولاده، ومربية لهم، وراعية لشأنهم، وكان ممن تقدم للخطبة إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق، ولكنَّ أباها حَسَن الأنور لم يردّ عليه، فذهب إسحاق المؤتمن إلى روضة النبي ﷺ، ووقف تجاه القبر في خشوع وإجلال وقال: يا رسول الله، إنِّي خطبتُ نفيسة بنت الحَسَن الأنور من أبيها فلم يردّ عليَّ جواباً،

وإني لم أخطبها إلاَّ لخيرها ودينها وعبادتها وخُلقها... وفي تلك الليلة رأي الحَسَن النبي ﷺ في المنام وهو يقول له: «**يا حَسَن، زَوِّجْ نفيسة من إسحاق المؤتمن**». فما أفاق من نومه حتى بعث إلى إسحاق يستدعيه، وقد سارع إسحاق إليه فأخبره الخبر، وأُعلنت الخطبة.

وفي جَمْعٍ من آل البيت وجماعة من أشراف قريش عُقد عليها لإسحاق المؤتمن الذي كان يُعَدُّ من أهل العقل والوَرَع والصَّلاح، وينتهي نسبه إلى أبي الشهداء الحسين بن عليٍّ، وكان الزواج بينهما جَمَعَ سيدي شباب أهل الجنة «الحسن والحسين»، يقول المقريزي في خططه: وتزوج بنفيسة رضي الله عنها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنهما. وكان يقال له إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين، روي عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدَّث عنه يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر... وقد قَدِمَ معها «مصر»، وكان يقال له «الحزين» لأنه لم يُرَ ضاحكاً.

وإذا كانت السيدة «نفيسة» اتجهت بكل قواها إلى كتاب الله استجلَّت غوامضه، وتمتعت بقوة الذاكرة الحافظة، وصفاء النفس، وقيام الليل، وصيام النهار، فإنها مع ذلك كانت زوجة مخلصة، لم تقصِّر في أمر مسؤوليتها كزوجة. كان زوجها يُفاخر بها الدنيا لما لمسه فيها من وفاء وأداء للواجب، ولم يشغلها أي أمرٍ عن الحقوق الزوجية. وهي أُمٌّ كانت ترعي حقوق أولادها، وتغدق عليهم العطف والحنان والرعاية، لينشأ أبناؤها على التُّقي والهدي والصلاح، وقد ولدت من إسحاق: «القاسم» و«أم كلثوم».

قدومها إلى مصر

طوفت سيدتنا «نفيسة» في كثير من البلاد، زارت بعض المشاهد، ووقفت على بعض الأمور، وانتهي بها المطاف أن وصلت إلى مصر يوم السبت ٢٦ رمضان سنة ١٩٢ هـ، وقد استقبلها أهل مصر عند «العريش» وهم يُهَلِّلُون أمامها ويُكَبِّرُون، ونزلت في مصر معزَّزة مكرَّمة، واستقر بها المقام في بيتٍ لسيدة تقية صالحة تسمَّي

«أم هانئ» وما زالت بها يفد إليها الناسُ من كل حدب وصَوْب، خاصةً طُلاَّب الحاجات، وراغبي الدعوات، وملتمسي النفحات والبَرَكات. وقد كان لها كرامات كثيرة في حياتها، وقد ذكر لها الإمام ابن حجر رضي الله عنه أكثر من مائة وخمسين كرامة، لأن الولي إذا كان في الدرجات العُلا من العبادة والصلاح استطاعت روحه البرزخية أن تنطلق في الآفاق.

وفاتها

بعد حياة مليئة بجلائل الأعمال وعظيم الشأن في دنيا الناس، همس إسحاق المؤتمن في أُذُن زوجته وقال لها: ارحلي بنا إلى الحجاز. فقالت: لا أستطيع ذلك، لأني رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام وقال لي: «**لا تَرْحَلِي من مصر، فإن الله تبارك وتعالى متوفيك فيها**».

وبعد ذلك بدأت تحفر قبرها بيدها، وذلك لشدة شوقها إلى لقاء الله، ثم إنها أحست بوعكة في أول رجب، فكتبت إلى زوجها الذي كان غائباً في المدينة تطلب إليه الحضور لإحساسها بدنوّ أجلها، ولبثت مريضة حتى العشر الأواسط من شهر رمضان، وكانت صائمة لا تفطر، وقد نصحها الأطباء بالإفطار فرفضت وقالت: واعجباً! إنَّ لي ثلاثين سنة وأنا أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتوفَّاني وأنا صائمة، أفأفطر؟ معاذ الله... ثم أنشدت تقول:

اصْـرِفُـوا عنـي طَبيبـي ... ودَعُـونـي وحبيبـي
زادَ بـي شَـوْقـي إليـه ... وغـرامـي فـي لهيبـي
طـاب هَتْكِـي فـي هَـواه ... بيـن واشٍ ورقيـبِ
لا أُبـالـي بفـواتٍ ... حيـث قـد صـارَ نَصيبـي
ليـسَ مـن لامَ بِعَـذْلٍ ... عنـه فيـه بِمُصيـبِ
جسـدي راضٍ بِسَقْمِـي ... وجُفُـونِـي بِنَحِيبِـي

وقد انصرف الأطباء وهم معجبون بقوة عزيمتها، وشدة يقينها، وثبات دينها، وفي ليلة وفاتها استفتحت بقراءة سورة الأنعام، فلما وصلت إلى قول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ

كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1] فاضت روحها الطاهرة، وكان ذلك عام ٢٠٨ هـ، وحضر زوجها في اليوم الذي تُوفيت فيه، وتولي أمرها حسب وصيتها، ثم إنه جَهَّزَ تابوتاً لنقلها إلى البقيع لتُدْفَن مع آل البيت، ولكن أهل مصر عَزَّ عليهم ذلك، وطلبوا منه دفنها بمصر... وبعد حوار لم يقتنع به زوجها، وعندما نام في تلك الليلة رأي النبي ﷺ في المنام، وقال له: «**يا إسحاق، رُدَّ على الناس أموالهم وادفنها عندهم**». ففرح أهل مصر وهَلَّلُوا وكبَّروا... وما زال ضريحها حتى الآن يَفِدُ إليه الكثير من الناس للزيارة والتبرُّك. يقول السخاوي في التحفة: ولم يزل الصالحون والأئمة والفقهاء والقُرَّاء والمحدِّثون والعلماء يزورون مشهد السيدة «نفيسة» رضي الله عنها ويدعون عنده، رضي الله عنها وحشرنا في زمرتها يوم الدين.

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢.